كليوباترا من أعف نساء عصرها

« إن الذين جاءوا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه
شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب
من الاثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم »
قرآن كريم

بعد وفاة العاهل العظيم الاسكندر الأكبر عام ٣٢٣ ق.م. تمزقت أوصال إمبراطوريته ، وقسمت بين عظماء رجال دولته وقواده ، وقد كانت مصر من نصيب بطليموس أحد قواده الذى اشتهر بالقوة وسداد الرأى مما ساعده على تأسيس دولة عظيمة فى مصر أعادت لها بعض مجدها الغابر . وقد سار على نهجه بعض أخلافه المباشرين ، إلى أن قطعت مصر فى فتوحها شوطاً بعيداً حتى أصبحت أقوى دولة فى العالم مدة فترة وجيزة . غير أن فتوة ملوك هذه الأسرة لم تلبث أن تسرب إليها الوهن ، ودبت فيها عوامل الانحلال والترف والخلاعة مما قرب أجل أفول نجمهم وضياع ملكهم جملة على يد فاتحين أقوياء . فلا غرابة إذاً أن نرى عند تولية كليوباترا السادسة وأخيها بطليموس الثانى عشر ملك البلاد عام ٥١ ق.م. أن سلطان هذه الأسرة أصبح على شفا جرف هار ، وأن نهايتها صارت محتومة . وقد كان بطليموس الملقب بالزمار والد كليوباترا يحس بدنو أجل دولته قبل وفاته ؛ لذلك أوصى فى وثيقة مختومة حفظت فى مأمن فى حيازة الجمهورية الرومانية أن يخلفه على عرش البلاد ابنته كليوباترا بالاشتراك مع أكبر أخواتها جرياً على تقاليد هذه الأسرة الموروثة . وقد كان أخوها الذى سمى فيما بعد بطليموس الثانى عشر حدثاً فى العاشرة من عمره . غير أن هذه الوصية لم ترق عندما أعلنت فى نظر كليوباترا ، ولكنها لم تحاول أن تخفى ما يجيش فى صدرها من طموح للاستئثار بعرش البلاد دون شريك لها . بيد أن الأحوال الداخلية لم تكن مهيأة لتحقيق مطمحها ؛ إذ كان لهذا الملك الطفل أنصار

أشداء يرون أن توليته العرش واجبة . ويخص بالذكر منهم الخصى بثنتس الذى كان صاحب القول الفصل فى البلاط ، ويساعده على ذلك قائد الجيش أخلاس . ثم مرنى بطليموس نفسه ثيودوتس . فلما أحس هذا الثالوث بأطماع كليوباترا أخذوا يدبرون لكبح جماحها والحد من طموحها حتى نجحوا فى إثارة شعور أهل الاسكندرية بالتألب عليها . ولما لم تجد لنفسها نصيراً قويا أمام هؤلاء الثوار أزمعت الفرار إلى سوريا حيث جندت جيشاً هناك وسارت به لمحاربة جيش أخيها فى مصر ، فاعترضها جيش أخيها على الحدود الشرقية عند بلزيوم وحال دون تقدمها داخل البلاد .

وفى خلال تلك الفترة الرهيبة من تاريخ البلاد كانت الحروب الأهلية فى الجمهورية الرومانية قائمة على قدم وساق بين يليوس قيصر و بمبى . وقد انتهت بهزيمة الأخير فى مصر وقتله بالقرب من بلزيوم على يد أتباع بطليموس الثانى عشر أخى كليوباترا . وفى هذه الفترة كان يليوس قيصر قد حضر إلى الاسكندرية مقتفياً أثر بمبى . ولما كان قيصر يعد نفسه ممثل الجمهورية الرومانية التى وضع بطليموس الزعار فى حيازتها وصيته عن اعتلاء عرش مصر ، فانه ادعى لنفسه حق طلب كليوباترا وأخيها للحضور أمامه ، وأجبرهما على تسريح جيشيهما والخضوع لما يقضى به هو فى هذا النزاع القائم على ولاية عرش مصر . فلبى بطليموس نداء قيصر وعاد إلى الاسكندرية دون أن يسرح جيشه الذى تركه مرابطاً فى بلزيوم ليعوق عودة كليوباترا إلى مصر .

أما كليوباترا فكانت على يقين من أنها ستقتل على يد أنصار أخيها إذا هى حضرت جهاراً إلى قيصر ، فعقدت العزم أن تجعل قيصر يصغى إلى روايتها فى ذلك النزاع : لذلك عادت سرا على متن سفينة إلى الاسكندرية لا يرافقها إلا تابع واحد وثقت باخلاصه لها . فلما وصلت إلى مقر الملك احتالت فى الوصول إلى حجرة قيصر فى قصره ، فأمرت أن تلف فى بساط ناعم حمله تابعها الأمين على كتفه . واقتحم به أبواب القصر موهماً الحراس أنه قد جاء يحمل هدية لقيصر . وقد أفلح التدبير . ولم تكد عين قيصر تقع عليها حتى أسره جمال تلك الملكة الفتية ، وأعجبته مغامرتها وجرأتها المنقطعة النظير . وقد كان قيصر صاحب شهرة ذائعة فى استهواء النساء ، والميل

إليهن ، فانحاز إلى جانبها وأخذ يناصرها ، ومن ثم بدأت القصة الغرامية المشهورة بين قيصر وكليوباترا. وتدل الآثار المصرية أنه قد تزوج بها على حسب التقاليد الفرعونية . وبعد ولادة ابنهما قيصرون تبعت كليوباترا زوجها قيصر إلى روما حيث مكثت بها إلى أن قتل زوجها عام ٤٤ ق.م. وعندئذ لم تر بدا من العودة إلى مصر على جناح السرعة .

وقد كان موت قيصر سبباً فى قيام حرب أهلية أخرى فى روما ؛ إذ طالب أنطونيو وأكتافيان بدم قيصر من قتلته بروتس وكاسيوس ومن اشترك معهما . ومن الغريب أن كليوباترا قد لزمت الحياد خلال هذا الشجار الذى نشب فى روما فلم تمد يد المساعدة لأحد الفريقين . ولكن أنطونيو عندما تغلب على أعدائه وأصبح المسيطر على كل الجزء الشرقى من الامبراطورية الرومانية ، لم يغفر لكليوباترا حيادها . ولذلك دعاها للحضور بين يديه فى طرسوس لتسوغ موقف الحياد الذى التزمته أثناء حروبه انتقاماً لزوجها قيصر .

على أنه كان فى مقدور كليوباترا أن تعصى أمره ، وبذلك كان عليها أن تتحمل ما سيحيق ببلادها من خراب ، وما ينالها هى نفسها من مذلة وهوان ، فآثرت أن تذهب إليه بجيش أعظم خطراً وأشد بأساً من جحافله يجعله يضع سلاحه أمامها صاغراً مستضعفاً مهزوماً ، فسارت إليه وفى وجهها ولسانها وعقلها تلك الأسلحة الفتاكة التى وهبتها لها الطبيعة . وكأن الشاعر العربى قد عناهما بقوله :

وغزانا بقامة وبعين فذى سيافة وذى طعانه

استطت كليوباترا متن سفينة زينتها بأفخم أثاث ، وحلتها بأبهى الرياش ، وجلست فى وسطها على عرش فى صورة أفروديت ربة الجمال تحيط بها الجوارى الكنس فى صور ملائكة البحر ، وسارت بها السفينة حتى وصلت إلى طرسوس. وقد كانت أول أحبولة نصبتها لأنطونيو وأول سهم رمت به فى صميمه أن دعته إلى وليمة على ظهر سفينتها ، فكان انتصارها فى هذا الحفل مبيناً حاسما ، وأصبحت منذ تلك اللحظة معبودة أنطونيو وهدف حياته ومعقد آماله . ولم يلبث بعد هذه المقابلة إلا قليلا حتى أصبح لها زوجاً شرعيا . وبذلك نجحت كليوباترا فى درء الخطر عن الكنانة . وعلى هذه الصورة ابتدأت قصة أنطونيو وكليوباترا تلك

القصة العالمية التى غطت على قصتها مع قيصر ، وقد ختمت بموتهما فى أحضان الحب الزوجى الطاهر عام ٣٠ ق.م ، بعد هزيمتهما فى موقعة اكتيوم . ولم نجد فيما وصل إلينا من الوثائق التاريخية التى عثرنا عليها حتى الآن أن اسم كليوباترا قد قرن باسم أى رجل آخر غير اسمى قيصر وأنطونيو ، وقد تزوجت بهما على التوالى كما وضحنا .

والواقع أنها قد عاشت مع كل منهما عيشة زوج عفيفة طاهرة الذيل مخلصة حتى مماتها .

والآن نسائل : كيف حدث أن سميت باسم الموسس الملكية والخليعة الشرقية التى عاشت عيشة الفسق والفجور؟

مكانة كليوباترا فى التاريخ

اعتاد الكتاب القدامى والمحدثون على السواء أن يصوروا لنا كليوباترا بصورة امرأة شرقية فاتنة نزاعة للشهوات ، ذات سمرة جميلة تفوق النمر فى قسوتها ، وتختال فى حلل ملكية مصرية ذات بهاء ونضرة . وكذلك مثلوها فى صورة امرأة تحكمت فيها شهوتها البهيمية ، لا تؤثر أحداً على نفسها ، تتخطف الرجال وتودى بحياتهم بعد أن تقضى منهم وطرها . وقصوا علينا أنها لوثت شرف رجلين شريفين من أعلام رجال روما وقادتهما للهلاك ، وهما قيصر وأنطونيو .

والواقع أننا عندما ننخل البراهين التاريخية التى ادعاها أولئك الكتاب فان هذه الصورة المزعجة التى مثلت لنا فيها كليوباترا لا تلبث أن تتضاءل وتتلاشى وتذهب جفاء ، ولا يمكث لنا منها إلا صورة أخرى تختلف اختلافاً بيناً عن التى رسمها أولئك الكتاب ذوو الأهواء .

فأول افتراء على كليوباترا أنها كانت امرأة مصرية لحماً ودماً . والواقع أنه لم تجر فى عروقها نقطة واحدة من الدم المصرى ، بل هى من نسل أسرة شريفة من مقدونيا ؛ فهى إذاً مقدونية المنبت ، إغريقية الأصل .

وليس لدينا وصف مفصل عن منظرها ، ولكن إذا قسناها بأترابها من بنات جنسها فلا بد أنها كانت ذات بشرة بيضاء ، ويحتمل أنها كانت زرقاء

العينين ، ذهبية الشعر . ويستنبط من ملامح الرأس الموجود بالمتحف البريطانى — إذا كان حقيقة هو رأسها كما يقال — أنها كانت ذات شخصية تمتاز بالرقة والتهذيب ، لا تنم عن جمال فاتن ولكنها وديعة خلابة . ويقص علينا بلوتارخ الذى استقى معلوماته عنها من طبيبها الخاص أولمبياس أن جمالها فى ذاته لم يكن خارقاً للمألوف إلى حد أن يجتذب نظر من يشاهدها . وفى اعتقاده أن أوكتافيا زوج أنطونيو التى أصبحت فيما بعد منافسة لكليوباترا كانت أجمل المرأتين . والواقع أن هذا كان رأى كل من شاهدها ؛ فقد قال عنها ديوكاسيوس ؛ « لقد كان من أسباب المتعة والنعيم أن تراها أو تستمع إلى حديثها ، فقد كان لها سحر تغزو به القلوب التى غالبت نفوذ كل حب بقوة ويأس شديد حتى تلك القلوب التى أطفأت فيها الشيخوخة نار الحب وحولتها ثلجاً . »

قلنا إنها قد حملت إلى قيصر ملفوفة فى بساط على كتف مخلص من خلصائها . ولا شك أن ذلك يشعر بأنها كانت امرأة صغيرة الجسم رشيقته ، وهذا ما ينم عنه رأسها الذى سبق أن أشرنا إليه إن كان ينسب إليها حقيقة .

ويقال إن موسيقى صوتها الخلاب كان أمضى أسلحتها فتكاً وإغراء . ويروى لنا بلوتارخ : « أن من نادمها كان يفتنه سحرها الذى لا يقاوم ، وأن صورتها وحديثها يأخذان بمجامع القلوب ، وأن شخصيتها الفذة كانت تنبعث فى كل تصرفاتها ، وكل تلك الميزات كانت تحدث فى نفس جليسها حرارة لاذعة لا تنبعث من سواها . » ويقول عنها ديوكاسيوس : « إن سحر حديثها كان يستعبد كل من استمع إليها . »

أما عن مزاجها فالظاهر أنها كانت ميالة إلى المرح سريعة الاندفاع ، مغرمة بالمجتمع البهج ، هذا إلى ميلها إلى الفكاهة والمداعبة البريئة . غير أنها عند ما يدعو داعى الجد تظهر مظهر الملك يكسوها جلاله وتحفها عظمته . وقد ذكر عنها كل من المؤرخين بلينى وكسيوس أنها كانت مستخفة بالناس متكبرة ، ولكن هذا رأى عدوين ؛ إذ قد تفسر هذه الكبرياء من جانب كليوباترا بأنها عند ما كانت فى روما كان لزاماً عليها أن تحفظ كرامتها فى بلد تحس من أهله العداء لها ،فتظهر من الكبرياء ما يحفظ قيمتها وشخصيتها . والأمر الذى يسترعى النظر فى حياة كليوباترا أنها قبل أن تتصل بقيصر الذى كان سبباً فى عداوة الرومان لها لم تسمع عنها كلمة سوء تمس شرفها رغم

ما كان لها من أعداء ألداء فى ميدانى المجتمع والسياسة . وقد كانت تعيش فى الاسكندرية ذلك البلد الذى كان غوغاؤه مغرمين بهجاء الشخصيات البارزة فيه عندما كان يظهر فى خلقهم أى مغمز للنقد والتجريح .

وأخيراً كانت كليوباترا تعد بالنسبة إلى عصرها امرأة نالت من الثقافة حظا وافراً . والواقع أن معظم أسلافها من البطالمة كان من هواة الفنون والمشجعين لها ، وقد سارت كليوباترا على نهج أسلافها . هذا فضلا عن أنها قد وصلت بذكائها إلى حذق عدة لغات ؛ لذا لم تكن فى غالب الأحيان فى حاجة إلى مترجم عند مخاطبتها الأجانب . يضاف إلى ذلك أنها كانت الوحيدة بين أفراد أسرتها التى تعلمت اللغة المصرية القديمة ، كما كانت مولعة بالسياسة وفنون الحكم . ولا غرابة فى ذلك ؛ فقد كان حلم حياتها ومعقد آمالها أن يمتد سلطان بلدها الضيق وتصبح إمبراطورية عظيمة مترامية الأطراف .

والشائع عن كليوباترا أنها قد دبرت إيقاع يليوس قيصر العظيم فى أحابيلها ، وهو الذى يقول عنه أعداؤها إنه بطل شريف ، وإنه لم يكن له حول ولا طول أمام سحرها الخبيث . بيد أننا إذا نظرنا فى الأمر بالعين المجردة من العاطفة والتحيز وجدنا أن قيصراً هذا كان له فى صباه سمعة تخدش الآذان إلى حد بعيد ؛ فقد كان وهو أمرد يلقب فى عاصمة ملكه بلقب ملكة روما . ولما اكتهل انقاب إلى زير نساء ، وناهض الملك الضليل فى اصطياد النساء وإغرائهن ، حتى لقد كان جنوده أنفسهم يتغنون علانية بأغان خلقية شائنة عن فتوح قائدهم فى مضمار الحب . ولا نزاع فى أن شهرته كانت معروفة تمام المعرفة لكليوباترا الفتية التى كان يحتمل جدا أنها كانت طوال شبابها بريئة طاهرة الذيل ، ولكن ذلك لا يمنع أنها كانت لا تجهل الحياة وما تنطوى عليها من مغامرات قد تفلح وقد تخيب . ولهذا اعتمدت كليوباترا على صدق كل ما قيل عن قيصر ، وجازفت لاجتذاب هذا الدكتاتور العظيم إلى جانبها ليكون لها معيناً ونصيراً للوصول إلى مآربها ، فاستعملت الحيلة الجريئة التى ذكرناها لتصل إلى حجرته الخاصة . ولقد أفلحت كل تدابيرها ؛ إذ نرى قيصر بعد مقابلتها قد انضم إلى جانبها ، ومن ثم أصبحت كليوباترا فى أعين الرومان حظية قيصر وحسب ، ولكن فى مصر التى كانت تجرى فيها كل الحوادث كان الأمر على العكس من ذلك ؛ لأنه منذ

العهد الفرعونى كان من الجائز أن يتزوج رجل عظيم لا يجرى فى عروقه الدم الملكى بوريثة الملك المصرية ، وبذلك يصبح ملكاً شرعيا على البلاد يرثه أولاده من بعده . وهذا نفس ما حدث مع قيصر وكليوباترا ؛ فقد تزوجا ، وأصبح ابنهما قيصرون الوريث لعرش رع الذى كان يعتبر أول ملك حكم مصر فى العهود السحيقة . ولذلك كان يعد زواج كليوباترا من قيصر فى عين الشعب المصرى وفى عينها زواجاً شرعيا ، وأن ابنهما قيصرون هو وارث عرش مصر بعدهما . ولكن الأمر فى روما حيث تبعت كليوباترا قيصراً كان على نقيض ذلك ، إذ كانت تعتبر حظية قيصر وأن ابنها ابن سفاح . وقد كان الشعب الرومانى بما جبل عليه من كبرياء وغطرسة يحتقر كليوباترا لأنها شرقية مع أنها ليست شرقية المنبت كما أسلفنا .

ولما كان هذا الشعب يخشى أن يتخذها قيصر زوجته الشرعية لم يأل جهداً فى نشر كل رذيلة وفرية عنها بما يلطخ سمعتها ، كما كانوا يقذفونها بكل ما يجرح شرفها ويدنس عرضها .

على أن الرومان أنفسهم فى ذلك العهد كانوا أكثر الناس خلاعة وفسقاً ومجوناً وعصياناً ؛ فكان نساؤهم ورجالهم يتورطون فى مناكب الفجور وينغمسون فى ضلال الفسق ، تلك الأمور كانت تعتبر شعارهم السائد . ولهذا كان قواد الرومان من علية القوم فى الواقع آخر من يشير بأصبع الاحتقار إلى كليوباترا . ومع كل هذه الضجة وهذا الصياح ضد هذه الملكة لم يكن هناك مثقال ذرة من الحق يبرهن أن كليوباترا خلال حياتها مع قيصر قد انحرفت عن الصراط السوى فى معاملتها له ، بل كانت مثال المرأة المخلصة لزوجها ، الرءوم على طفلها . والمرجح أن قيصراً لو امتد به الأجل لتزوج من كليوباترا وفقاً للشريعة الرومانية ، وذلك ليوطد بهذه الرابطة التى كان ينتظر من ورائها فى المستقبل فرصة الاستفادة من زوجة مطيعة طموح ، ومن مصر السلسة القياد ليشب إلى تكوين إمبراطورية شرقية تكون الهند آخر حدودها . ولانزاع أن كليوباترا التى كانت تتقد فى نفسها نار أطماع زوجها رأت من جانبها ما تخيلته من الامبراطورية الموحدة الشاسعة الأرجاء تحت سلطان مصر وروما معاً ، وأن تلك الامبراطورية ستصير إرثاً عظيما لولدها المحبوب .

والواقع أنه حتى على أثر مأساة قيصر وفرار كليوباترا إلى مصر على عجل

لم تجد ألسنة الهجاء كلمة نابية تعيب سلوكها أو تدنس اسمها خلال الفترة التى انقضت بين هربها ومقابلتها لأنطونيو . على أنه لابد من الاعتراف هنا أن كليوباترا قد دبرت نصب أحابيلها لصيد أنطونيو ؛ ومع كل ذلك فان مقاصدها لم تكن مقاصد امرأة تقودها شهوتها ؛ إذ كانت ترقب عن كثب سير الحروب الداخلية التى نشبت بين أنطونيو وأكتافيان ، وبين بروتس وكاسيس . ولكنها على غير المنتظر لازمت خطة الحياد أثناء هذا الشجار الذى لم يكن لمصر فيه علاقة مباشرة ، وكانت كليوباترا تعلم ما عليه روما من قوة وبطش ، وتحس بالعواقب الوخيمة التى ربما أصابت بلادها إذا هى انحازت إلى جانب الفريق الذى تدور الدائرة عليه . هذا مع علمها أن الحرب قامت من أجل زوجها المقتول .

ولما وضعت الحرب أوزارها طلب إليها أنطونيو أن تبرر أمامه موقفها الذى اتخذته حياله فى هذه الحروب . ولما كانت هى تعلم وقتئذ أن مصر ضعيفة الشوكة لا تجرؤ على مقابلة العدوان بمثله لجأت إلى استعمال الحيلة لتخلص مصر من هذا المأزق الحرج ، وبخاصة بعد أن عرفت الكثير من مزاج أنطونيو وطباعه ، وما اشتهر به من معاقرته الخمر ، وغرامه بالنساء ، وحبه الغناء . هذا فضلا عن أنها كانت فى الوقت نفسه قد حاكت فى خيالها من جديد مشروع إمبراطورية شرقية تتحكم فى العالم أجمع . ولا بد أن نلحظ من جهة أخرى أن روما كانت تنتظر الفرصة المواتية لوجود سبب أو وسيلة لاعلان الحرب على مصر للاستيلاء عليها وضمها لممتلكاتها ، وبخاصة أن مصر كانت تعد فى تلك الآونة مخزن غلال العالم ، كما كانت كليوباترا لكل تلك العوامل تعد نجاحها فى الاستيلاء على قلب أنطونيو خلاصاً لبلادها مما يضمره لها الغيب .

وكان أنطونيو رجلا يختلف اختلافاً بيناً عن قيصر فى مشاربه وأخلاقه ؛ إذ كان ألين منه مغمزاً ، ولكن ربما كان أكثر منه عاطفة فى حبه . والظاهر أنه كان رغم اكتهاله طفلا فى خلاقه . حقا أنه كان شجاعاً جسوراً موالياً لأصدقائه ، سهل القياد إلى حد أنه كان معبوداً من شعبه وجنده على السواء ، ولكن كان ينقصه مضاء عزيمة قيصر .

وحين وقفت كليوباترا على حقيقة أخلاقه دبرت أول مقابلة له فى طرسوس الواقعة على آسيا الصغرى ، فكانت موقعة فاصلة فى تاريخ حياتها . وتمت

المقابلة على ما رسمت ووقع أنطونيو فى أسر غرامها . وتدل شواهد الأحوال أن كليوباترا من جانبها قد ولهت بحب هذا الرجل الرومانى المشرق الطلعة؛ فكانت نتيجة تلك المقابلة انتصاراً عظيما لمآربها وهزيمة ساحقة لقلبها .

تبع أنطونيو كليوباترا فى عودتها إلى مصر، وحدثت أحداث ، لم تزوج منها على الشريعة المصرية ؛ غير أن هذا الزواج لم تعترف به روما إذ كان له زوج شرعيـة بها ، وهى أخت أكتـافيان وقد بقى أنطونيو مع كليوباترا فى مصر . ولا نزاع فى أن حياة الزوجين فى الاسكندرية كانت حياة ملؤها البهجة والسرور ، وشعارها المآدب الفخمة والنزه المرحـة . ومع هذه الحياة الطافحة بأنواع المسرات لم تسمع كلمة سوء فاه بها أحد تخدش سمعتها أو تثلم شرفها ، ولم يقرن اسمها بشخص آخر . وفى الحق أنها كانت المثل الأعلى للزوجية كما كانت أما رءوماً لأطفالها الأربع الذين أنجبتهم من أنطونيو . وفى الوقت الذى أعلن فيه رسميا قيصرون بن قيصر وريثاً لعرش مصر كان أطفالها الأربعـة الآخرون قد نصب كل منهم ملكاً على إقليم من أملاك روما المترامية الأطراف . أما كليوباترا نفسها فقد لقبت ملكة الملوك .

وعلى الرغم من ذكاء أنطونيو وحب الشعب له فانه لم يكن بالرجل الذى فى مقدوره أن يؤسس إمبراطورية تشمل العالم كله ؛ إذ كان على ما يظهر كلما تقدمت به السن فقد من إقدامه وجرأته . وقد انتهى به الأمر إلى أن أصبح رجلا مخموراً لا يفيق من سكره . وفى نهاية الأمر اتسع خرق العداوة بينه وبين روما ، وبخاصة عندما طلق أخت أكتافيان مما أدى إلى حروب داخلية ، ومن ثم أخذ نجم أنطونيو يأفل . ولا بد أن تكون كليوباترا قد أحست وقتئذ بالخطر الداهم ، وشعرت أن الدائرة لا محالة ستدور عليها فى نهاية الأمر ، لا سيما أن أنطونيو قد أصبح مثله كمثل يراعة هشة لا يمكن الاعتماد عليـه ، ولو كانت كليوباترا حقيقة من طراز المرأة المراوغة الخداعة ، كما وصفها أعداؤها ، لنبذت أنطونيو وتركته فريسة أعدائه عندما أحست بأول إشارة تنذر بسوء المنقلب ، ولنصبت حبائلها لتوقع فيها أوكتافيان الذى أخذ نجمه يتلألأ ويلمع . والواقع أننا نجدها وقتئذ تابعة مخلصة وفية لأنطونيو إلى أن لفظ النفس الأخير ثم إنها بعد ذلك أظهرت عليه الحزن والجزع بقلب كسير ملؤه الوفاء إلى أن لحقت به فى مثواها الأخير بعد موته بفترة وجيزة .

ويعتبر المؤرخون اغتيالها نفسها ، الذى كان على ما يرجح بنهشة ثعبان ، نهاية مشرفة نالت الاعجاب التام حتى من أوكتافيان نفسه ألد أعدائها ، حتى لقد نفذ إجلالا لها آخر وصية أوصت بها ، فشيعها بكل مراسيم الملك إلى جوار زوجها الوفى أنطونيو .

ومما سبق نرى أنه حينما ندرس حقائق التاريخ عن حياة هذه الملكة درساً محايداً فانها تظهر أمامنا فى صورة الزوج الطاهرة الذيل لكل من زوجيها على التوالى ، وأنها كانت أمًّا حنوناً لأبنائها الخمسة . على أن القليل الذى كتب مدحاً فيها قد سطرته أقلام كتاب محايدين ، أما ما كيل عليها من ذم وتجريح فقد خطه يراع أعدائها السياسيين المنافسين لها ، ولا سيما أهل روما الذين كانوا يمقتونها كل المقت لما كان لها من نفوذ على أعاظم حكامهم ، وهم الذين كانوا لا يطيقون أن يخضع كبرياؤهم وتعصبهم حتى لتصور أنهم يحكمون بملكة شرقية .

ولم يبق أمامنا من التهم التى وصمت بها «كليوباترا» إلا تهمة القسوة والغلظة .

حقا أنها كانت ذات إقدام ، ولكن أين البراهين التى يدلى بها على أنها كانت قاسية القلب غليظة الطبع ؟

وأول تهمة شنعاء لصقت بها هى قتل أختها أرسنوى بتحريضها ؛ ولكن أرسنوى هذه كانت أول من أعلن العصيان وشق عصا الطاعة على كليوباترا وقيصر . ولما أخمد هذا العصيان وقبض على أرسنوى ، استعرضت فى شوارع روما مكبلة بالسلاسل والأغلال فى ركاب قيصر عندما دخل عاصمة الملك مظفراً . ولقد كان المتبع عند الرومان أن أمثال أرسنوى من الأسرى الملكيين ينفذ حكم القتل فيهم بعد احتفال عرض الفاتح المظفر ، غير أنه قد عفى عن هذه الأميرة وصرح لها أن تعود وتلازم إحدى المعابد المصرية . ولكن لم تنقطع عن تدبير الثورات والمكايد ضد الملك ، فقتلت بأمر من أنطونيو وبتحريض من كليوباترا .

وكذلك اتهمت بأنها دست السم لأخيها الاصغر وشريكها الأسمى الذى كان يحمل لقب بطليموس الرابع عشر ، وهو الذى رافقها فى زيارتها المنكودة إلى روما ، ويقال إنها دست السم له بعد عودتها من روما بقليل ؛ غير أنه ليس

لدينا شعاع من الحقيقة يثبت ذلك ، بل المظنون أن هنا الصبي قد وافاه أجله دون اغتيال .

حقا أن كليوباترا قد أمرت بقتل بعض من أودعوا السجن لأنهم تآمروا على اغتيالها وأثاروا الفتن والقلاقل فى ملكها . وإذا فرضنا أنها أمرت حقيقة بقتل أرسنوى التى كانت تسعى لاغتيالها وانتزاع ملكها ، فانها لم تكن أسوأ أخلاقاً من الملكة اليصابات الطيبة عاهلة انجلترا التى سجنت أختها مارى ثم قتلتها . ومع ذلك فانها لم تتهم مطلقا بحب سفك الدماء لذاته بسبب هذا الحادث .

وكذلك سجل عليها التاريخ ، كذباً كان أو صدقاً ، أنها عند ما كانت تبحث عن سم ناجع يقضى على حياتها دون آلام قد أجرت تجارب تلك السموم على مجرمين حكم عليهم بالقتل . والواقع أن هذه الطريقة لا تتفق مع المبادئ الخلقية الحديثة التى تفضل إجراء التجارب الطبية على الحيوان الضعيف الذى لم يجن إثماً ولم يقترف ذنباً ، ولكن العصر الذى عاشت فيه كليوباترا كان ينظر إلى هذه الأشياء بنظر مختلف ؛ إذ كان لا بد للمجرم المحكوم عليه بالقتل أن يموت بحال من الأحوال . لهذا كانت طريقة هذا القتل فى نظر عصرها ليست بذات بال ، ولكنها كانت على أعظم جانب من الأهمية لكليوباترا التى كانت تبحث عن طريقة تخلصها من الحياة التى أصبحت لا تحتمل بعد موت زوجها بطريقة لا تعانى بها آلاماً . هذا ولم يعز إليها ارتكاب جرائم قسوة غير ما ذكرنا إذا كان ذلك صحيحاً . على أنه من جهة أخرى كانت كليوباترا تعيش فى عصر يتشدق فيه الجم الغفير من المتعلمين بعدم وجود آلهة ، أما هى فكانت على جانب عظيم من التقى ، تعتقد اعتقاداً راسخاً بتوحيد الألوهية والملكية ؛ إذ يقال عنها إنها كانت فى مناسبات عدة ترتدى ملابس الالاهة إزيس لتمثلها على الأرض ؛ فكانت بذلك تمثل الحقوق الالهية الموروثة ، ولكنها لم تقتصد مطلقا أن تمثل القوة الالهية ؛ لأن الفراعنة القدامى كانوا يعتقدون دائماً أنهم يتقمصون صورة رع إلـه الشمس على الأرض ، ولذلك ظهرت كليوباترا عندما مثلت هذا الدور المصرى القديم فى نظر شعبها أنها تمثل على مسرح أو تلعب دوراً خارقاً للمعتاد .

ويمكن أن نقرر هنا أنه من المحتمل جدا أن كليوباترا لم تكن ترتدى

الملابس المصرية الحقيقية إلا فى مثل هذه المناسبات ؛ لأن اللباس الاغريقى كان الزى المتبع بين الطبقات العليا من المجتمع . وأخيراً يجب على المؤرخ عندما يفحص أخلاق أشخاص عاشوا فى الماضى أن يزنهم بميزان العصر الذى عاشوا فيه ، وأن يحكم عليهم بحسب المستوى الاجتماعى الذى عاشوا فيه لا بمستوى عصره . فاذا وضعنا كليوباترا فى كفة الميزان بالنسبة لأخلاق عصرها فانها تظهر أمامنا المثل الأعلى فى الطهر والعفاف ، فلم تعدُ أن كانت زوجاً مخلصة وأمًّا رءوماً ، وإذا قسناها بغيرها ممن سبقوها ، وهم أولئك الأشخاص الذين قست قلوبهم ، وتحجرت ضمائرهم ، وارتكبوا من الآثام ما يدمى القلوب دون أن يوجه إليهم لوم أو تجريح ، فانها تعد ملكا طاهراً بريئة من كل قسوة . على أننا لو حكمنا عليها بميزان عصرنا ، وإن كان حكماً خاطئاً من الوجهة التاريخية ونجحنا من الوجهة الخلقية ، فانا سنجدها امرأة ألقى بها القدر وسط فتن عاصفة وأعاصير مهلكة ، ولم تعد أن شقت طريق الخلاص لنفسها بحزم وضبط نفس واحتشام ، وفى نهاية المطاف لاقت حتفها تحفها أبهة الملك وجلاله مما أرغمنا على الاعجاب بها كما أرغم ألد أعدائها أكتافيان الرومانى على إجلالها حتى نفذ آخر وصية أوصت بها .

هذه هى كليوباترا ملكة الملوك فى كفة الميزان كما حدثنا التاريخ المنصف لا كما تحدث عنها أعداؤها الذين خبثوا ووضعوا ،فكان حكمهم زيفاً وضلالا . « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين . »

سليم حسن